علاقة اللغة بالهوية في ظل العولمة اللغوية والثقافية اللغة العربية أنموذجا

حسين مبرك *

قسم اللغة والأدب العربي كلية الآداب واللغات جامعة محمد بوضياف المسيلة الجزائر

تاريخ الإرسال :2020-07-05 تاريخ القبول :2021-05-29 تاريخ النشر :25-12-2021

ملخص: لم تعد تنحصر غاية اللغة في الوظيفة التواصلية ، ولم تعد وعاء للفكر والثقافة ، وآلية للتفكير والإبداع ، كما أنَّها ليست مجرد أبنية نحوية وصرفية ، وصيغ لغوية ، وقوالب تركيبية فحسب ، وإنَّما هي علاقات فوق لغوية ، ووشائج وروابط وعلاقات وشبكة وعي ، وفعل حضاري ، ومن ثمَّ باتت ترتبط بمسألة الهوية التي تختزن ماضي الأمة وتحتفظ بموروثها الحضاري والواجهة التي تعكس قوَّتُها ونموها وتطورها ، قوَّةَ أبنائها ونموهم وتطورهم

الكلمات المفتاحية: هوية ؛ عولمة ؛ لغة ؛ ثقافة ؛ حضارة.

Relationship of language to identity in light of linguistic and cultural globalization, “the Arabic language as a model”

The purpose of language is no longer confined to the communicative function, nor is it a vessel of thought and culture, and a mechanism for thinking and creativity, nor is it merely grammatical and morphological structures, linguistic formulas, and structural templates only, but rather supernatural relationships, ties, ties, relationships, awareness network, civilized action, and who Then it became associated with the question of identity, which stores the nation’s past and maintains its cultural heritage, and the facade that reflects its strength, growth and development, the strength of its people and development

, Key words: identity, globalization, language, culture, civilization

mabrakhocine@gmail.com

مقدمة: إنَّ" الهوية هي ذلك الإحساس الداخلي المطمئن للإنسان على أنه هو نفسه في الزمان والمكان وعلى أنه منسجم مع نفسه باستمرار ، مهما تعدَّدت واختلفت المكانات الاجتماعية، وعلى أنَّه معترف به، بماهو عليه من طرف الآخرين " ومنه فإن البحث سيحاول كشف التحديات التي تواجه العربية في ظل العولمة اللغوية والثقافية من خلال التأكيد على على العلاقة الوثقى بين اللغة والهوية الوطنية والقومية ، وما أثارته العولمة من صراع لغوي وثقافي عالمي ، كما يحاول رصد تجليات العولمة في اللغة العربية ، من خلال سياقات ومسارات متعددة..كان لابدَّ من تحديد العولمة الذي يتناغم مع التَّحدِّيات التي تواجه اللغة العربية، في ظلِّ اختلاف المفكِّرين والمنظِّرين والسِّياسيين حول العولمة ،بالنَّظر إلى اختلاف مشاربهم الثُّقافية والسِّياسية ، وتباين اتِّجاهاتهم الأيديولوجية والذَّاتية،وينبغي الإشارة إلى أنَّ بعض النَّظريات تحاول أن تسوِّق مقولات تصوِّر العولمة على أنَّها حتميَّة تقضي بضرورة اشتراك المعمورة في المفاهيم والقيم ، تحت عناوين مغرية وجذَّابة على أنَّها " إكساب الشَّيىء طابع العالمية ، ومايشترك فيه كُل النَّاس باعتباره شكلا من أشكال توحد العالم المفضي إلى سعادة البشر "(صالح بلعيد، 2007، 334) ، لذلك ينبغي أن ندرك أنَّ هذه العولمة ليست جمعية خيرية تسعى لإشاعة الأمن وبسط الخير والتقريب بين الشعوب والأديان وتوزيع أسباب الرَّخاء والرَّفاه على الإنسانية ، بقدر ماهي قوَّةٌ ضاغطة تملك أسباب التَّأثير والابتزاز الي تتيح لها افتكاك امتيازات ، وانتزاع مصالح ، وتحقيق أغراضها وأهدافها على حساب المجتمعات الضَّعيفة ومن ثمَّ لايمكن الاطمئنان إلى المفهوم الذي يرى العولمة " أنَّها توحيد طريقة التَّفكير والنَّظر إلى الذَّات وإلى الآخر وإلى القيم "(طلال عتريس، 1929، ص44) ، إذ لايمكن فصل اللغة عن الهوية في مواجهة تحدِّيات العولمة ، ذلك" أنَّ الهويَّة هي ذلك الإحساس الدَّاخلي المطمئن للإنسان على أنَّه هو نفسُه في الزَّمان والمكان على أنَّه منسجم مع نفسه باستمرار مهما تعدَّدت واختلفت المكانات الاجتماعية ، وعلى أنَّه معترف به ، بما هو عليه من طرف الآخرين الذين يمثلون المحيط المادي والاجتماعي والثَّقافي والمحلي والإقليمي الدَّولي "(محمد مسلم، 1997، ص13). ولعلَّ هذه العلاقة العضوية بين اللغة والهوية هي التي دفعت " كرومر" أثناء غزو مصر إلى وضع " خطَّة تعليميَّة تستهدف إبعاد العربية عن ميدان التَّعليم ، وتستبدل بها لغة قومه "(محمد علي الزركان،2002، ص8) ثمَّ إنَّ هذا الالتحام بين اللغة والهوية هو الذي حمل المستعمر على محاولة طمس اللغة العربية وإفراغها من محتواها " لأنَّ المستعمر أدرك أنَّ اللغة القوميَّة تشد الإنسان إلى قومه وتربة وطنه وتُربِّي فيه شخصيته القومية ، ومشاعر العزَّة والانتماء فكان إحياءُ اللغات الميِّتة ، وتشجيع انتشار اللَّهجات المحلِّيَّة ، وتعزيز استعمالها في الحياة العامَّة والرَّسمية ، واتِّهام العربيَّة بالقصور والعجز وعدم القدرة على مواكبة روح العصر"(أحمد دحمان،2002، ص19) ، ومن ثمَّ فإنَّ اللغة العربيَّة بالنِّسبة للنَّاطقين بها في جميع أنحاء البلاد العربية هي الرَّابطة الوثقى التي تعزِّز وحدتهم ، وتؤكِّد قدرتهم على الانسجام والالتحام ضدَّ كلِّ أشكال وصور الغزو السَّاسي والثَّقافي والفكري ، وقد نجح المستعمر في كثير من المجالات في إشاعة في روح النفور من اللغة العربيَّة ، مستعينا بفئة من التَّغريبيين ممن تأثَّروا بالثَّقافة الأجنبية أو ممن استهوتهم الحضارة الغربية عامة ، أو أثَّرت فيهم النَّعرة الاستعمارية" ، أو ممن تشرَّبوا النَّزعة التَّبشيرية وصاروا يتكلَّمون لغات أجنبيَّة ، بحكم التَّعلم في مدارس أجنبيَّة معادية للعربية والتَّعريب فتأثَّروا بهذه الثَّقافات الوافدة ، وراحوا يقلِّدونها في كلص شيىء ، بل بتنا نلحظ عداء سافرا للغة العربية من قبل هذه الفئة ، التي أضحت تستنكف من لفظ عرب أو عربي أو عربية أو تعريب ، ولاشكَّ أنَّ استبدال العربية

بلغات أجنبية إبان حكم المستعمر قد خلق هُوَّة عميقة بين أبناء الأمَّة الواحدة والوطن الواحد ، وبين تراثهم وتاريخهم وحضارتهم ، ولعلَّ من تبعات ذلك وتداعياته أن باتت صورة مدرِّس اللغة العربية في جميع المستويات مقرونة في أذهان النَّاس بالجمود والتَّزمت والسَّلفيَّة والتَّخلف في كثير من الأحيان.ولعلَّ هذا الفهم للهُويَّة اللغوية هو الذي أوحى إلى الشَّارع " محمود درويش "، لمَّا ربط بين ضياع اللغة والموت ،بقوله:"إنَّالموت هو موتُ اللغة وعدم القدرة على النطق حين كتب على ورقة الطَّبيب لقد فقدتُ اللغة أي لم يبق منِّي شيىءٌ "(ساطع الحصري، 1984، ص56) وهو الموقف الذي ذهب إليه الفيلسوف الألماني "فيخته"، بقوله:" أينما توجد لغةٌ مستقلَّة توجد أمَّةٌ مستقلَّة لها الحقُ في تسيير شؤونها وإدارة حكمها "(الجيلالي علام،2001، ص128) ولعلَّ ماوصلت إليه العربية من ضياع وإهمال ، هو نتيجةٌ لتوجه كثير من وسائل الإعلام ودورها في تهميش العربية وإقصائها والزَّراية بها ، من خلال ماتعتمده من سياسات تستهدف إضعاف العربية وزحزحتها عن مكانتها الحقيقية والطَّبيعية التي ينبغي أن تتبوؤها في الأوساط الثَّقافية والاجتماعية واللغوية ، وفي كافة المجالات الحياتية ، على نحو مانشهده من إبراز المُعرَّب بصورة الجاهل أو المتطرِّف والمُعقَّد ، من خلال العروض المسرحية والنَّشاطات الفكاهية والتَّرفيهية والمسلسلات التي تضعه موضع السخرية والاستهتار والتهكم .ولعلَّ فهمنا لذاتنا ، ووعينا بخطر اللغة ، وعلاقتها الوطيدة بالهوية هو، الذي يحدِّدُ مفهومنا للآخر وفهمنا له ، لا من خلال رؤيته لذاته ، ومن ثَمَّ فليس صحيحا أنَّ العولمة "لا تهدِّدُ الهُويَّة أو الهويات الثَّقافية بالفناء أو التَّذويب ، بل تُعيدُ تشكيلها أو تطويرها للتَّكيف مع العصر"(بشير زكريا إمام،2000، ص4) ، لذلك فإنَّ إعادة التَّشكيل أو التَّطوير والتَّجديد ، تُستلهم من مكوِّنات الهوية العربية وخصائصها ومعالم شخصيتها ، ومنه فإنَّ عدم امتلاك الحصانة الثقافية واللغوية هي التي من شأنها أن تجعل من العولمة غولا يتهددنا ، ويوشك أن ينقض علينا ، ويحولها إلى طوفان جارف يُدمِّرُ كلَّ شيىء في طريقه ، بل ويضعها ذلك رديفا " للاستلاب الثقافي وتدمير الهوية الوطنية ، وأنبياء العولمة وفلاسفتها لا يُكنون سوى الاحتقار للثقافات الأخرى غير العربية ، وهم يصفونها بأنَّها مناقضة للتقدم وللعلم "(حسين حموي، 2003، ص11) ولامناص من أنَّ العلاقات الدولية في ظلَّ النِّظام الدَّولي الجديد الذي يسود العالم ، تدل على أنَّ العولمة هي " تغيير طرائق البشر وعقولهم بما ينسجم والأهداف الأميركية القائمة على احتكار السوق والتَّحكم بالعالم اقتصاديا وسياسيا وثقافيا ، من خلال مقولة : نحن نختار لك ودعنا نفكِّر نيابة عنك واستسلم لأمرنا تكن في أمان من القتل " (حسين حموي،2003، ص12) ، ومن ثَضمَّ وجب رفع الالتباس ، من خلال التَّمييز بين العالمية والعولمة فالعالمية هي التَّعايش السِّلمي بين الدول والمجتمعات من خلال التَّواصل العلمي والاحتكاك الثَّقافي وحوار الحضارات ، وما يتخلَّل ذلك من تبادل للخبرات والتَّجارب والتَّعاون المشترك ، بمنأى عن الاستغلال والهيمنة " إذ تحمل المعاني الجديدة للعولمة شراسة القوة العسكرية والاقتصادية والسياسية والثقافية والاجتماعية في أبشع صورها في حين تحمل معاني العالمية الحوار الحضاري بين الثقافات وتبادل النظرات والخبرات والإنجازات العلمية بما يعود بالفائدة والخير على البشرية جمعاء في فضاء المعرفة الذي لا حدود له والأكثر انفتاحا وفهما واعترافا بالآخر وقناعاته وبخصوصيته ،فالعالمية تؤلِّف بين البشر من خلال مفهوم أنَّ الإنسان أخو الإنسان ، وأنَّ ثقافات الشعوب وعقولها تتلاقح فيما بينها وتتفاعل من خلال الحوار والمثاقفة ، وليس من خلال العدم والإلغاء"(محمد سعد رحيم، 2003، ص10) ، ولعلَّ أخطر ما في العولمة أنَّها تملك وسائل لقوة والتَّأثير

بعيدة المدى ، فهي " تهاجم من كلّ اتّجاه ، وتملك استراتيجيات حاذقة ووسائل تقنية هائلة ، وتبدو مثل شبح لايمكن تحديد موقعه ومسار حركته بيسر ، وبهذا فهي تختلف عن أنماط الغزو الثّقافي التّقليدية ، والتي كان من الممكن رصدها بسهولة مع تعيين الأرض التي تنطلق منها واتّجاهاتها، ومجالاتها الحيوية التي تعمل فيها"(دانييل دريزيز،1997، ص39) .ولعلّ من أهداف العولمة تحويل العالم إلى قرية صغيرة ، وإذا لم يكن بدٌ لهذه القرية من لغة مشتركة للتّواصل الثّقافي والعلمي ، فهي اللغة الانجليزية ،بوصفها اللغة الأكثر انتشارا في العالم ، وهي لغة التّقنية والعلم والتكنولوجيا الحديثة " وإذا تحوّل إلى لغة مشتركة ، فإنّ هذه اللغة ستكون الانجليزية ، وهي لغة الاقتصاد والبحث والتكنولوجيا ،وإذا كان يتحرك بمعايير مشتركة في مجال الأمان والنّوعية ...فستكون هذه المعايير أميركية ، أمّا القيم فتكون قيما يرتاح لها الأميركيون ..هذه ليست مجرّد تطلعات لاجدوى منها فاللغة الانجليزية تربط العالم في مجالات الاتصالات والمواصلات "(نبيل علي، 2001، ص273) . ولعلّ الواقع البائس الذي تعيشه اللغة العربية ، يحتّمُ علينا النّظر في منظومتنا القيمية ، وإعادة قراءة هذا الواقع السيّىء الذي تعيشه العربية والبحث عن الحلول والبدائل والآليات التي من شأنها تطعيم اللغة العربية وتطويرها حتّى تقوى على مسايرة روح العصر ، ثمّ النّظر في هذه اللغة من منظور الأنا حتّى نتصالح مع هذه اللغة ، ونعالج المشاكل التي تعاني منها من قبل فريق يتحامل على العربية ويعاديها ويتجنّى عليها ، وينادي ب" التّغريب والارتماء في أحضان اللغة الأجنبية الغربية وحجّة أصحابها في ذلك أنّها اللغة المتطوّرة والحاملة للواء التّقدم والازدهار والمحتوية للحضارة الرّاقية"(مها خير بك ناصر، ، 2006، ص99) وهذا الفريق وقف موقف المنبهر المذهول الشّاعر بالدونية والنّقص أمام الآخر الذي هو النموذج الأعلى في كلّ شيىء ، والذي ينبغي تقفّي أثره وتقليده تقليدا أعمى ، وتخلّيهم بالمقابل عن موروثهم الحضاري والثّقافي " وممّا لاشكّ فيه أنّ العولمة تجد طريقها في مجتمعات مفرّغة من الأصالة والجذور التّاريخية ، لأنّ المخزون الثّقافي لهذه المجموعات ضحل ، ولا يمكنه تسخير الفكر العالمي لمصلحته القومية ، بالتّفاعل الصّحيح في مختبرات وطنية سليمة من الشّوائب والتّشويش "(طلال عتريس،1929، ص80) ولعلّ هذه الردّة اللغوية هي التي حملت هؤلاء على رؤية العالم بعيون الآخر ، وولّد في نفوسهم الشعور بالتّبعية الذي استحال إلى تقليد الآخر في سلوكاته ومعاملاته وأخلاقه وعلاقاته حتّى بات نسخة مكرّرة وربّما مشوّهة عن الآخر ، وحاولوا في هذا السّياق تهجين العربية بمصطلحات وألفاظ دخيلة ، كوسيلة من وسائل التّمييع للغة وتشويهها " إذ عمد الكثير من الأفراد وبعض المتحذلقين من المثقّفين في السّنوات الاخيرة إلى دسّ المفردات والتّراكيب الأجنبية في عربيتهم دون حاجة ملحّة أو ضرورة علمية أو فنّية إنّهم يفعلون ذلك تحذلقا أو إعلانا عن فوقية مصطنعة ، أو إظهارا لاتّساع الثّقافة وتنوعها تنوع ما تكنّفوه من عناصر لا يدري أكثرهم ما مصدرها ، ولا يدركون معانيها الدّقيقة ولا يجيدون نطقها ، بل يمسخونها مسخا إنّهم يلوكونها بألسنتهم ويلوون أعناقها ، فتخرج من أفواههم مغلوطة غير ذات نسب صحيح بهذا الأصل أو ذاك "(نزيه الشوفي، 2005، ص21) وهذا مايفسّرُ ولع المغلوب بتقليد الغالب على رأي "ابن خلون" ،وشتّان بين التّقليد الأعمى الذي يطمس شخصية المقلّد ، ويمحو ذاته وهويته ، وبين التّأثر الحضاري " وخاصة عندما ينظر أفراد هذه المجتمعات إلى الغرب باعتباره النموذج الحضاري النّاجح .وإنّ التّخلف السيكولوجي يعبّر عن نفسه لغويا عبر تبنّي لغة الطّرف القوي المتغلّب ومحاولة تقليده .."(عدنان الملحم، 2002، ص337) فكان من تداعيات هذه التّبعية أن أدّت إلى انفصام لغوي ومسخ ثقافي وسلوكي

واضطراب منهجي في سائر أنماط الحياة ، وربّما" أخطر ما في هذا الشعور بالدونية ،هو التّطاول على خصائص الشّخصية القومية والانحياز إلى ثقافة الاستهلاك ، ثقافة الجينز والهمبرغر والجنس الرّخيص وذلك ضمن التّوحيد النّمطي للثّقافة العالمية ، التلفزيون الأميركي ، الموسيقى الأميركية الطّعام الاميركي اللّباس الأميركي ، الأفلام الأميركية ، عالم والت ديزني "(عثمان أمين، 1967، ص20) ، وقد بلغت قطيعة هذا الفريق مع لغته حدّ الانسلاخ والتّحلل من الفكر الذي تحمله هذه اللغة ..ذلك أنّ اللغة هي وعاء الفكر ، وكلُ محاولة للفصل بينهما هي ضرب من القفز في الخيال والوهم ، إذ إنّ " كل محاولة تهدف إلى اعتبار اللغة شيئا يمكن قياسه من الخارج من دون نظرة داخلية بالفكر إنّما تبوء بالفشل ، وليست اللغة رصفا من الألفاظ ولا جمعا لمفردات دون وعي أو انتباه ...اللغة قضايا مفيدة دالة ، والقضية حكم ، ومتى قلنا بالحكم فقد قلنا بالرّبط الفكري .."(عثمان أمين،1967، ص11) إن اللغة العربية ليست مجرّد قوالب وأبنية نحوية وصرفية فحسب ، ولكنّها علاقات وأواصر ووعي وفعل حضاري ونتاج فكري وكل ما من شانه أن يؤسس للوعي والتّجدد ، ومن ثمّ فإنّ المشكلة ليست في اللّسان ، وإنّما في الإنسان الذي لم يقو على صياغة السؤال المتعلّق بكيانه وذاته ، وتاه وسط لجّة من المفاهيم والقيم التي لا تصنعها المجتمعات الأخرى ، الأمر الذي أصابه بالعجز والقصور عن تطوير لغته" إذ لا تفتأ تتوارد عليه كثرة متكاثرة من المفاهيم التي تضعها المجتمعات الأخرى فيأخذ في التّخبط في معاقدها ومغالقها ، بل في متاهاتها وأحابيلها، لا قدرة له على استيعابها ، ولا طاقة له على صرفها "(محمد المبارك، 1997، ص297) ومنه فإنّ ضعف العربية لاينبغي التّأسيس له بزمن العولمة فحسب ، لأنّ مشكلة الهوية والخصوصية بدأت بالاستقلال المشوّه المنقوص السّيادة ، حين تعرّضت الخصوصيات لانتهاكات خطيرة ، ولم نلتفت إلى هذه الخصوصية ولم نعن بها حتّى نكون في موقف النّدية والمشاركة والتّأثير والفاعلية وقد تولد عن حالة التّيه والضياع التي عاشها هذا الإنسان العاجز ثلاثة أنماط من الأنساق الثقافية واللغوية والمعرفية ، وهي :النموذج المغترب عن ذاته المكتفي بالنقل التابع للآخر ،والنموذج المغترب في ذاته الذي لا يسأل عن خصوصية ، والنموذج الحائر الذي يواجه الآخر دون فعالية ، ومن ثمّ غاب النموذج المعرفي الفاعل المؤسس للذات الجماعية ، إلى جانب ذلك فإنّ المشروع الحضاري في البلاد العربية قد تعرض إلى التّشرذم والتجزئة الانتماء السياسي والإقليمي والعالمي ، الأمر الذي أدّى إلى بروز مايسمّى بمثقف المعلومات الذي لايملك السؤال ، وهو منخرط في العالمية تحت وطأة الشعور بالدونية، الأمر الذي أدّى استيراد المصطلح اللغوي والمعرفي بأسمائه الأصلية ، دون البحث عن إيجاد المقابل لها ، أو تعريبها وفق موازين العربية وأبنيتها ، وهو ما أدّى إلى إحداث شرخ بين المصطلح الوافد والمتلقّي ، ومن ثمّ سادت الفوضى في السياق اللغوي المتمثل في الثقافة واللغة والمنهج ، فشاعت الميوعة في الخطاب اللغوي داخل الجامعة والأسرة وأفراد المجتمع .أما فريق آخر ، فقد رأى في العربية خصوبة وغنى وقدرة على التّصدي للزحف اللغوي الأجنبي ،في كثير من التجارب والمحطات "ولقد دلّت العربية خلال قرون طويلة أنها صاحبة مناعة تحميها من التّأثيرات الغريبة عن خصائصها الموروثة وذلك لأحكام نظامها ومتانته ، فلم تسمح للفظ الغريب أن يدخل الخلل على نظامها والفساد على قواعدها ، ولذلك صهرته وغيّرت معالمه حين قبلته "(محمد مصايف،1981، ص85) إلى جانب قدرتها على التجدد والتوليد فهي " تتميّز عن غيرها من اللغات اللّأتتية كونها لغة ترد إلى ميزان صرفي ، فهي نتيجة لذلك تتميّز بالتّجدد ، إنّها لغة اشتقاقية ، أمّا اللغات الأخرى فهي تركيبية ، ذلك لأنّ

اللغات الهندية الأوربية هي لغات لاتعتمد كثيرا على الاشتقاق ، وإنّما تعتمد بالدّرجة الأولى على ظاهرة التّركيب أي تركيب كلمتين أو أكثر"(محمد علي الزركان، 2002، ص123) لذلك فإنّ العربية لم تكن يوما عاجزة أو قاصرة عن استيعاب العلوم ، ولكن العجز في أهلها ، وليس أدل على ذلك تلك الكتب النفيسة التي علمت أوربا البحث ، ففي الطب أخذت أوربا كتاب القانون لابن سينا ،وكتاب الحاوي لأبي بكر الرّازي ومفردات ابن البيطار في الأدوية ورسائل جابر بن حيان في الكيمياء والخوارزمي في الرياضيات وفي الجغرافيا " نزهة المشتاق لاختراق الآفاق للشريف الإدريسي"(محي الدين صابر، 1987، ص123) ، ويقول " محي الدين صبحي :"لعدة قرون في التاريخ الوسيط ظلت العربية هي اللغة العالمية الأولى لغة الفكر والعلم والاقتصاد وحرّر الحرف العربي عشرات اللغات غير المكتوبة وأدخلها عالم التّدوين ، وتعايشت الثقافة العربية الإسلامية مع ثقافات الشعوب التي ارتبطت معها بالعقيدة ولم تحاول طمسها أو استلابها، ولكنها تعاملت معها أخذا وعطاء فأغنتها واعتنت بها وقبلت دون تحيز ولا تمييز من استطاع أن يضيف إلى قدرتها بل إنها كرّمت ذلك وشجّعت عليه "(كمال بشر، 1999، ص223) ، ومن ثمّ فإن العلاقة بين اللغة وأبنائها هي علاقة جدلية ، فاللغة تتطور وتنتعش وتنمو وترقى بتطور ورقي أهلها والناطقين بها ، وهو ماذهب إليه كمال بشر بقوله:" كلما حرص أهلها على إمدادها بالزّاد ، وكلما ماجت البيئة المعيّنة بالنشاط العلمي والثقافي ، نهضت اللغة استجابت لهذا النشاط وأخذت في استغلال طاقتها وتنمية ثروتها وتعميق جوانبها . ومن ثمّ تستطيع أن تُمدّ هؤلاء وأولئك بطلبتهم من النّشاط الثّقافي الوسائل اللغوية اللّازمة للتعبير عن علومهم وفنونهم ،وكلّما جمد التّفكير العلمي وتخلّف النّشاط الثّقافي ظلّت اللغة في موقعها جامدة ، ولا تبدي حراكا ولا تقدّم زادا لأنّها بذلك قد فقدت عوامل النمو وحرمت من عناصر النضج الفنّي "(كمال بشر، 1999، ص54) ولا يمكن للغة أن تضعف وتذوي ، أو تتراجع في مردودها وعطائها إذا كان أهلها أقوياء ،لأنّ " اللغة لا تحيا ولا تموت بنفسها ، وإنّما يلحقها هذا الوجه أو ذاك بحسب الظروف والملابسات التي تحيط بها ، فإن كانت الظروف فاعلة غنية بالنشاط العلمي والثقافي والفكري ، كان للغة استجابتها الفورية ورد فعلها القوي تعبيرا عن هذه الظروف وأمارة مايموج به المجتمع من ألوان النشاط الإنساني وإن حرمت اللغة من هذا التفاعل ظلت على حالها وقدّمت للجاهلين فرصة مؤلفاتهم لأنّهم هم المسؤولون على وجه العموم على هذا النقص(إيريك فان، ، 1998، ص421) ..لقد كان من أهداف المستعمر محو الخصائص القومية والروحية للشعوب التي احتلها والقضاء على اللغة العربية الفصحى بوصفها لغة القرآن والعلم ، من خلال استعمال اللهجات، واستبدال الخط اللاتيني بالخط العربي في الكتابة ، من أجل القضاء على الإسلام "وعلى الحضارة العربية عن طريق فصل الأجيال الصاعدة عن تراثها المكتوب بالحروف العربية منذ مجيىء الإسلام(ناصر مها خير بك، 2006، ص10) ، ورغم ما مرت به الأمة العربية من ظروف عصيبة، فاكتسح التتار بلادهم وأمعنوا فيها خرابا ودمارا، ورغم مخلفات عصر الضعف والانحطاط وآثاره السلبية من جمود وركود وتقليد واجترار، إلا أنّ العربية ظلت حية تقاوم الاضمحلال والتلاشي والوهن ،بحكم أنها لسان الدين الإسلامي الذي تعهد الله بحفظه ، بالإضافة إلى جهود العلماء واللغويين والرواة الذين أسهموا بقسط وافر في حفظ متونها وتقعيد ضوابطها ، ولازال أعداء العربية يعلنون ويسرون عداءهم للعربية بل نحن أمام هجمة استعمارية متجددة شرسة تستهدف كل ماهو عربي، إذ ليس من سلاح أمضى من القضاء على اللغة العربية لغة القرآن " وجامعة كلمة العرب والمسلمين وموحدة

فكرهم وثقافتهم، فما أحرانا باليقظة وتوحيد الكلمة ورص لصفوف لدحر هذه الحملة العدوانية الشريرة ودرء هذا الخطر الجاثم"(سعدون حمادي،1984، ص291). إنَّ اللغة ظاهرة اجتماعية، تقوى بقوته وتضعف بضعفه، فهي تنمو وتتطور وترتقي، كما يصيبها الوهن والجمود والتلاشي مثلما هو شأن الأمم ، بل إن اللغة هي مرآة الأمة التي تبين موقعها وتكشف مكانتها بين الأمم ، قوة وضعفا، إنتاجا وعقما، ومن ثم فإن" كل قصور لغوي في مجتمع من المجتمعات هودليل قاطع على مدى تخلف هذا المجتمع في ركب الحضارة" (سعدون حمادي، 1984، ص292) وهاهي اللغة الانجليزية تتفوق على غيرها من لغات العالم على مستوى البحث العلمي ومخابر الطب والهندسة والمخترعات والإعلام الآلي والفضاء، حينما امتلكت المصطلحات العلمية، وهي" ألفاظ نحتت نحتا من اليونانية واللاتنية، وفي مقدورنا أن نأخذها كما أخذوها، بعد أن نصقلها صقل التعريب فتضاف إلى اللغة القومية"(عبد الرحيم عبد الجليل، 1984، ص35)، ولنا في تجربة الجامعات السورية خير مثال، حين عكفت على تعريب التعليم فيها ، وفي جميع التخصصات، كالطب والفيزياء والكيمياء والرياضيات والهندسة، وقد أشار إلى هذه الحقيقة " أحمد حسن الزيات" قائلا:"هذا العلم الذي يسخر السماوات والأرض لهذا الإنسان الضعيف، ويذلل القطعان الملايين للراعي الفرد، سيبقى غريبا عنامالم ننقله إلى ملكنا بالتعريب ، ونعممه في شعبنا بالنشر، ولا يمكن أن يصلنا به أو يدنينا منه كثرة المدارس ولاوفرة الطلاب، فإن من المحال أن ننقل الأمة كلها إلى العلم عن طريق المدرسة، ولكن من الممكن أن ننقل العلم كله إلى الأمة عن طريق الترجمة"(سعدون حمادي،1984، ص293)، وقد عبر عن هذه التجربة الفريدة من نوعها في البلاد العربية الأستاذ" محمد حسان الطيان" بقوله:" تجربة متواضعة ، ولكنها غنية ثرية خضتها بنفسي على امتداد عشرين عاما في مركز الدراسات والبحوث العلمية بدمشق، إذ سنى الله لي أن انضم إلى فريق عمل متكامل ضمَّ أناسا من اختصاصات شتى في العربية والرياضيات والحاسوب والالكترونيات، كان من أولى مهامه معالجة اللغة العربية بالحاسوب، وقد أتى العمل أكله على خير وجه بحمد الله، إذ أنجزنا عدة مشاريع علمية في هذا المجال، أهمها النظام الصرفي العربي بالحاسوب ونظام تحويل الكلام المكتوب إلى مقروء، وقواعد تعليم العربية بالحاسوب، وهي ترمي إلى أهداف عظيمة وغايات بعيدة، على رأسها الترجمة الآلية من العربية وإليها واكتشاف الأخطاء اللغوية في النصوص وتصحيحها، وتعرف الكلام وتركيبه، والقراءة الآلية للنصوص المكتوبة، والكتابة الآلية للنصوص المنطوقة، والتحاور مع الآلة باللغة الطبيعية، والفهرسة الآلية للنصوص وضغط النصوص واسترجاعها، وشكل النصوص غير المشكولة جزئيا...وغير ذلك"(عبد الرحيم عبد الجليل،1984، ص58)، ومنه فإن مسؤولية النهوض باللغة العربية تقع على عاتق النخب والمثقفين والكتاب والأدباء والإعلاميين والمجامع اللغوية ومراكز البحث والسياسيين والخبراء، وكل ضعف يصيبها أو تقهقر يطالها، إنما هو بسبب ضعف الناطقين بها ، لأن اللغة مرتبطة بمستوى الفكر، والفكر هو الذي يصنع اللغة، وتصنعه في الوقت نفسه، كما أن الفكر هو جسد اللغة واللغة هي ثوب الفكر، وليس أدل على ذلك اللغة اليابانية التي باتت لغة متطورة بفضل تطور الصناعة والتكنولوجيا في هذا البلد ، لعل الخطة الأولى في هذا المشروع، هو أن نجعل اللغة العربية لغة التعليم والخطاب والمراسلات والمحاضر والتقارير والبحث في المؤسسات وأجهزة الدولة والبنوك والمقاولات والشركات والإعلام.ورغم كل المحاولات التي بذلها أعداء العربية وخصوم التعريب للقضاء على الهوية الوطنية واللغة العربية إلا أنها استطاعت الصمود، وشق طريقها،لاستعادة دورها الحضاري الذي لعبته

منذ منتصف القرن السابع الميلادي، حتى نهاية القرن الحادي عشر منه، وباتت اليوم لغة عالمية كالأنجليزية وغيرها من اللغات العالمية .ولعلً أهم العوامل التي حصنت اللغة العربية وقوتها، وجعلتها تصمد أمام كل العواصف والزوابع، في الحاضر والماضي والمستقبل, وبوأتها مكانة خاصة عند المسلمين، أنها لغة القرآن الكريم، ومن ثم ظلت محافظة على هذه المنزلة في قلوب المسلمين، في مشارق الأرض ومغاربها، وصار اكتسابها والتحكم فيها شيئا ملحا، لاسيما في بعض المجالات والأبحاث الأكاديمية، من طرف الباحثين والدارسين ورجال المال والأعمال، إلى جانب صدور العشرات من الجرائد والمجلات التي تصدر باللغة العربية في العديد من العواصم العربية وأمريكا، وقد عبر المستشرق الفرنسي" لويس ماسينيون" عن أهمية اللغة العربية كلغة عالمية ، بقوله:"إن اللغة العربية أداة خالصة لنقل بدائع الفكر في الميدان الدولي، وإن استمرار حياة اللغة العربية دوليا لهو العنصر الجوهري للسلام بين الأمم المستقلة في المستقبل"(محمد حسن الطيان، 1996، ص53)، وتبرز اللغة العربية أكثر فأكثر لكي تصبح لغة عالمية محترمة، في ظلً عدد من الشًواهد والقرائن والاعتبارات التي لاتخفى على كل باحث مهتم بدراسة اللغة العربية وتطورها، من خلال المجامع اللغوية والعلمية التي تهتم بتطوير اللغة العربية ، وإغناء متنها بالمصطلحات العلمية الحديثة، إلى جانب نشاط حركة الترجمة من مختلف اللغات إلى العربية ، ومن العربية إلى لغات العالم، وغدت العربية لغة عمل في الجمعية العامة للأمم المتحدة، ولغة رسمية في منظمة الأمم المتحدة، والمنظمات التابعة لها، مثل منظمة اليونسكو ومنظمة الصحة العالمية ومنظمة الطفولة، وهي إلى ذلك لغة رسمية في الاتحاد الأفريقي، ولاننسى أن اللغة العربية قد أسهمت مساهمة فعالة في الحفاظ على الحضارة الإنسانية، وتراثها الثقافي،وحتى تتبوأ اللغة العربية مكانتها الحقيقية التي تتيح لها مواجهة تحديات العولمة،وتتمكن من مواكبة التطور العلمي والتكنولوجي في العالم، ينبغي الاهتمام بالتعريب كأولوية للنهوض بالعربية، إلى جانب الاهتمام بتدريس اللغات الأجنبية ذات المستوى العلمي والتقني الرفيع، وكذا تنشيط المجامع اللغوية في البلاد العربية، بغرض تيسير قواعد اللغة العربية وإثراء متنها ومعجمها بالمصطلحات العلمية الحديثة، واستحداث طرائق وأساليب ومناهج علمية وتربوية من شأنها تسهيل تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، وإنشاء مراكز ثقافية عربية في البلدان الأجنبية لتعليم اللغة العربية، إلى جانب الوعي بأهمية اللغة العربية وآدابها بوصفها وعاء لفكر وحضارتها وهويتها وشخصيتها وذوقها، وتحفيز الأدباء والكتاب والمبدعين، والاعتناء بمصادر الثقافة ووسائلها، ولماكان الرهان صعبا ومحفوفا بكثير من المصاعب والمخاطر بسبب العولمة اللغوية والثقافية ، بات من الضروري التفكير بجدية وإعادة النظر في مناهج تدريس اللغة العربية والعمل على تحديثها وتطويرها بما يتماشى ومقتضيات العصرنة والحداثة وربط ماضي اللغة بحاضرها ومستقبلها، وتطعيمها بمستجدات الفكر المعاصر في مجال الدراسات الأدبية والنقدية، وما أكثر المفكرين والفلاسفة الذين أشادوا باللغة العربية ، وعددوا خصائصها وفضائلها ، كما في قول " نولدكه":"إنه لابد أن يزداد تعجب المرء من وفرة مفردات العربية عندما يعرف أن علاقات المعيشة لدى العرب بسيطة جدا وبلدهم ذو شكل واحد ولكنهم داخل هذه الدائرة يرمزون للفرق الدقيق في المعنى بكلمة خاصة "(سعدون حمادي، 1984، ص294) كما عبر " أرنست رينان عن إعجابه بالعربية ، وأثر القرآن عليها " ولغة القرآن على اعتبار أنها لغة العرب كانت بهذا التجديد كاملة ...وهكذا يساعد القرآن على رفع اللغة العربية إلى مقام المثل الأعلى في التعبير عن المقاصد"(عبد الرحيم عبد الجليل، 1984،ص85) وصفها بالتخلف والجمود ، في حين أنً

قومها هم الجامدون المتخلّفون ومنه فإن اللغة لا يمكن أن يأتيها الضعف والعجز والقصور إلا من ضعف وعجز وقصور أهلها ، وهذا ما يجعلنا مقتنعين بأن لا لغة قصّرت عن خدمة إنسان عنده فكرة يريد التعبير عنها ،ومن ثم لاينبغي أن ننصت إلى أولئك الذين يحمّلون لغاتهم مسؤولية النقص الذي في عقولهم ونفوسهم.ولاشكّ أنّ التّبعية اللغوية تؤدّي إلى تبعية حركية سلوكية تتجلّى في مظاهر الحياة اليومية، فيغدو دعاةُ التّغريب صورة نمطية مُشوّهة عن الآخر المتبوع، وتصيرُ هذه السلوكات تقليدا أعمى واجترارا وترديدا لما ينتجه الآخر ، لا أثر للتفكير والنّظر فيما يصلنا من الثّقافات الأخرى ليصل هذا التّقليد إلى حدّ االانسلاخ والتّحلل من كل ماله علاقة بالأنا والذات، الأمرُ الذي يؤدّي إلى انفصام لغوي وثقافي" وأخطر مافي هذا الشعور بالدونية هو التطاول على خصائص الشخصية القومية والانحياز إلى ثقافة الاستهلاك، ثقافة الجينز والهمبرغر والجنس الرخيص، وذلك ضمن التوحيد النمطي للثقافة العالمية: التلفزيون الأمريكي، الموسيقى الأمريكية، الطعام الأمريكي، اللباس الأمريكي، الأفلام الأمريكية، عالم والت ديزني("عدنان الملحم، 1996، ص337). ولعلّ خصوبة اللغة العربية وغناها وثراءها هو الذي منحها هذه المناعة التي سمحت لها بالتصدي للزحف اللغوي الأجنبي،كما أن قدرتها على التجدد والتوليد، هما سمتان تنبعان من خواصها، الأمر الذي أكسبها صفة الديمومة والقدرة على المواجهة والمغالبة، إنها" تتميز عن غيرها من اللغات اللاتنية كونها لغة ترد إلى ميزان صرفي، فهي نتيجة لذلك تتميز بالتجدد، إنها لغة اشتقاقية، أما اللغات الأخرى فهي تركيبية، ذلك لأن اللغات الهندية الأوربية هي لغات لاتعتمد كثيرا على الاشتقاق، وإنما تعتمد بالدرجة الأولى على ظاهرة التركيب أي تركيب كلمتين أو أكثر"(محمد مصايف1981، ص85)، ومن ثم لايمكن أن تهزم لغة أو تضعف وتتلاشى إذا انتصر أهلها لها وحرصوا على تطورها وتجديدها والإبداع بها، من خلال مواكبة التطور العلمي والتقني ، لأن" اللغة لاتحيا ولاتموت بنفسها، وإنما يلحقها هذا الوجه أو ذاك بحسب الظروف والملابسات التي تحيط بها، فإن كانت الظروف فاعلة غنية بالنشاط العلمي والثقافي والفكري، كان للغة استجابتها الفورية ورد فعلها القوي تعبيرا عن هذه الظروف وأمارة مايموج به المجتمع من ألوان النشاط الإنساني وإن حرمت اللغة من هذا التفاعل ظلت على حالها وقدمت للجاهلين فرصة وصمها بالتخلف والجمود، في حين أن قومها هم الجامدون المتخلفون"(كمال بشر، 1999، ص224)، لذلك فإنّ ضعف الإحساس بالأنا أمام قوة الآخر، هو المنفذ الذي يمكن أن يتسرب منه الضعف والشعور بالنقص ، فلا يمكن الجمع بين التفريط في الهوية الغوية واحترام الذات، وفي هذا السياق أشار كبير المستشرقين الروس" شرباتوف":" ولقد أظهرت اللغة العربية قوتها في القرون الماضية، وتستطيع هذه اللغة اليوم بفضل ثراء أصلها التاريخي، ولما اكتسبته من الظواهر الجديدة مثل كثرة المصطلحات العلمية والفنية الجديدة أن تساير التطور في جميع مراحله ومجالاته"(عدنان الملحم1997، ص201). ومن المُحبط أن نرى وسائل الإعلام الغربية تحرص كل الحرص على الهوية اللغوية، وتعمل على تصدير ثقافتها وتسويقها في العالم، في حين تحاول كثير من وسائل الإعلام العربية إقصاء العربية وتقزيمها وليس أدل على ذلك أن كثيرا من المذيعين والصحفيين والمنشطين والسياسيين يخلطون بين العربية والعامية والفرنسية، ومن ثم وجب أن ندرك أن اللغة العربية هوية تختزل ماضي الأمة وحاضرها ومستقبلها ، وأن حجم التحديات كبير ، يتطلب الوعي والجدية والحرص على تطويرها من أجل مواكبة الركب الحضاري ولا يتحقق ذلك إلا بالمصالحة مع الذات للتخلص من الاستلاب الثقافي واللغوي، كما أن المصلحة العليا للنهوض بمجتمعنا يقتضي استبعاد اللغة

الفرنسية من السنوات الأربعة الأولى من التعليم الابتدائي بالإضافة إلى ضرورة تعريب العلوم في الجامعات العربية .

قائمةالمراجع:

1- بلعيد صالح،(1999). **محاضرات في قضايا اللغة العربية**، دط. قسنطينة: مطبوعات جامعة قسنطينة.
2- عتريس طلال، (1929).**العرب والعولمة**، دط. بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية.

3- مسلم محمد،(1997).**الهوية والعولمة**، دط. دمشق، سوريا: دار الغرب للنشر والتوزيع
4- الزركان محمد علي،(2002).**التحديات المعاصرة في مواجهة اللغة العربية**، دط. دمشق، سوريا: اتحاد الكتاب العرب.

5- دحمان أحمد،(2002).«اللغة العربية، الصلة بين حاضر الأمة وتراثها». **مجلة التراث العربي**، مركز الدراسات العربية،المجلد11 العدد102، ص19. 1.1
6- الحصري ساطع،(1984).**ماهي القومية**، دط. بيروت، لبنان: دار العلم للملايين.
7- حلام الجيلالي،(2001).«أثر العولمة في اللسان الرسمي- العربية نموذجا». **مجلة اللغة العربية**، المجلس الأعلى للغة العربية، العدد الخامس، ص 128.
8-إمام بشير زكريا،(2000). **في مواجهة العولمة**، دط.عمان، الأردن:الطليعة للنشر.
9- حموي حسين،(2003). «مخاطر العولمة». **مجلة منبر الآداب**، دمشق، سوريا، العدد 83، ص11.
10-رحيم محمد سعد،(2003). **العولمة وثقافة النسيان**، دط .العراق:دار بغداد للنشر.
11- دريزيز دانييل،(1997). « تحدِّي العولمة ». **مجلة الثقافة العالمية**، الكويت، العدد 85، ص39.
12- علي نبيل،(2001).«الثقافة العربية وعصر المعلومات». **عالم المعرفة**، لبنان، العدد 14، ص273.
13- ناصر مها خير بك،(2006). «العربية والعولمة في ضوء النحو العربي والمنطق الرياضي». **مجلة التراث العربي**، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد 102، ص99.
14-الشوفي نزيه،(2005).**الثقافة الهدامة والإعلام الأسود**، دط. دمشق، سوريا: اتحاد الكتاب العرب.
15- الملحم عدنان،(2002). **العرب وتحديات المستقبل**، دط. دمشق، سوريا:اتحاد الكتاب العرب.
16- أمين عثمان،(1997). **في اللغة والفكر**، دط.القاهرة، مصر: معهد البحوث والدراسات العربية.

17- المبارك محمد،(1997). **فقه اللغة وخصائص العربية**، الطبعة السادسة.بيروت، لبنان: دار الفكر.
18- مصايف محمد،(1981). **في الثورة والتعريب**،الطبعة الثانية. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
19- صابر محي الدين،(1987). **من قضايا الثقافة العربية المعاصرة**، الطبعة الثانية. بيروت، لبنان: المكتبة العصرية.
20- بشر كمال،(1999). **اللغة العربية بين الوهم وسوء الفهم**، د ط. مصر: دار غريب.
21- فان إيريك،(1992). **اللغة**، دط. القاهرة، مصر: مكتبة الأنجلو مصرية.
22- حمادي سعدون،(1984). **اللغة العربية والوعي القومي**، د ط. بغداد، العراق: مركز دراسات الوحدة العربية.

23 – عبد الجليل عبدالرحيم،(1984). **لغة القرآن**، د ط. عمان، الأردن: مكتب الدراسات الحديثة.

24– الدجاني أحمد صدقي،(1998). «الثقافة العربية والإسلامية وتحديات العولمة». **مجلة الكلمة**، بيروت، لبنان، العدد 18، ص 143.

25–الطيان محمد حسن،(1996). **أسلوب معالجة اللغة العربية في المعلوماتية**، دط. تونس: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.